الشمس ، لم يشرق فى البيت منه شمس لأنه قد حال بين نور المرآة ونور الشمس ذلك الصدأ .

فكذلك القلب إذا أقبلت على الله تعالى وعليه الهوى ، لم يشرق بالنور الأعظم ؛ لأن الهوى قد حال بين نور المعرفة ، وبين النور الأعظم ، وهو اليقين ، فإذا ذهب الهوى ، فنظرت له ، تلاقى النوران ، فأشرق فى صدرك ، فأبصرته عين قلبك ، فصار يقينًا ، واليقين فى لغة العرب هو الشىء المستقر الثابت ، تقول العرب ، قد يقن المار فى الحفيرة . .

صفة القلب

قال له قائل : اشرح لنا صفة القلب .

قال : القلب بضعة من لحم ، فى جوف بضعة أخرى ، وهو الفؤاد ، ومعدن النور القلب ، ومنه قيل خبز فئيد ؛ لأنه فى جوف الرماد الحار والجمر ، فالبضعة الخارجة هى الفؤاد ، وإنما سمى قلبًا لأنه يتقلب ، وله عينان وأذنان وباب ، والصدر بيته ، وإنما سمى صدرًا لأن الأمور تصدر عنه ، فالنور الذى فى القلب يعرف ربه لأنه نوره ، وهو حبة

القلب واشتقاق الحب منه ؛ لأنه وصل حبة قلبه ، ومنه قوله عز وجل :﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾[1] أى أصوله إلى حبة القلوب ، ثم قال تعالى : ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ولم يقل فى فؤادكم ، ومما يحقق ذلك قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « **أتتكم أهل اليمن ، هم ألين قلوبًا ، وأرق أفئدة** »[2] فوصف القلب باللين ، والفؤاد بالرقة ، فالنور إذا خرج من باب القلب ، أشرق فى الصدر ، فأبصر عين الفؤاد ذلك النور ، فإذا فكر فى الجنة أو النار ، أو فى شيء من أمور الآخرة ، وقع لتلك الفكرة ظل على الصدر ، فتمثل ذلك الشيء بين عينى القلب ، فصار كأنه ينظر إليه . وإذا ذكر الرب تبارك وتعالى ، لم يقع لذكره ظلٌّ على الصدر ، ولكنه يشرق النور ، ويتلألأ النور فى الصدر ، حتى يكاد يغشى بصر القلب ؛ لأن النور إنما أشرق فى الصدر ؛ لأنه نوره ، فإذا ذكر الأشياء ، فالأشياء مخلوقة ، فوقع للأشياء ظل ، فإذا ذكره تلألأ النور ، ولم يقع فى الصدر ظل ، وهو بمنزلة قنديل

---

(١) سورة الحجرات – من الآية رقم ٧ .

(٢) أخرجه البخارى جـ٨ ص ٩٨ . ومسلم فى كتاب الإيمان . باب تفاضل أهل الإيمان جـ٢ ص ٣٠ والترمذى فى صحيحه ، والبيهقى والطبرانى ، وأحمد .

معلق فى البيت فحائط البيت يشرق عليه نور المصباح ، فإذا رفعت يدًا أو شيئًا بين الحائط وبين المصباح ، وقع لذلك الشيء على الحائط ظل ، وتمثل ذلك الشيء ، فإذا رفعت بين المصباح وبين الحائط مصباحًا آخر ، ازداد ذلك إشراقًا وضياء ، ولم يتمثل على الحائط صورة ، ولا وقع ظل ، فهذا شأن القلب .

فإذا حمى بالفطام من الهوى فصفا ، صار كالذهب يخرج من النار ، فحينئذ يُحَكُّ بالحجر ، اختبارًا لجودته ، وذلك أن الذهب لاجتماعه وكثرته ، أراك لون حمرته ، بقوة بعضه من بعض ، وانضمام بعض إلى بعض ، فإذا حككت منه شيئًا بحجر وبقى بالحجر من ذلك شيء لطيف رقيق ، تبين لك جودته . إنه يريك فى حال الضعف والرقة . ومن آية قواه أنه قوى الحمرة ، وأنه جيد ، وذلك الرديء المغشوش يريك حُمرته ما دام كثير القدر ، كثير الوزن ، مجمع القوى ، فإذا حككته بحجر ، فبقى الذى على الحجر ، رأيته أصفر ، فعرفت أنه ليس بجيد .

فكذلك القلب لا يتبين ما فيه حتى يُفْطَم ، ويريك أنه قد صفا بالفطام ، فحينئذ يحك بحجر البلوى فيختبر سكونه

بمن ، وإلفه مع من ، أباللَّهِ سكونه ومعه إلفه ، أم لعطائه سَكَنَ ، ومع أحوال نفسه ألف ؟ فالحك هو النقصان ، فمن كان سكونه به ، وإلفه معه ، لم يتغير النقصان ، أعنى نقصان العطاء ، ولجزيله ، لأنه للنقصان والتجزيل يبين إلى ما سكنت ، وهل قطعت الهوى ، فهذه منزلة عبادتك له بما هو أهله ، وهو الذى يقال له : اعبد الله باليقين لا بالهوى ، واليقين عقيب الهوى . فكل ما نقص من هذا ازداد من ذلك ، فهما يتعاقبان أبدًا .

ويقال : الصبر صبران ، صبر على الشدائد ، وصبر على ما يدعوك إليه الهوى ، طاعة كانت أو معصية . فإذا فطمت نفسك عن طاعة الهوى ، حتى صار لك عادة ألاّ تطيع الهوى فى شيء من الأشياء .

وإن أُبيح لك ذلك الشيء واستنار قلبك باليقين ، وهو نور مشرق فى الصدر ، وعينك تنظر إلى ذلك النور ، ونفسك يَقْظَى ، بقرب الله عز وجل ، كما قال عامر بن عبد قيس رحمه الله : « ما وقع بصرى على شيء إلا رأيت الله أقرب منه » وروى عن محمد بن واسع رحمه الله تعالى ، نحو من ذلك ، وإنما أدرك عامر هذه المنزلة ؛ لأنه راض نفسه ،

حتى صار بحال – حكى عن نفسه أنه قال : وجدت الدنيا أربعة أشياء ، فما زال يروض نفسه حتى أطاعه الهوى ، حتى قيل له حيث يريد الشام : كيف تبكى على أهل مصر ؟ قال : لأن بها إخوانى ، وبها كثرة تجاوب المؤذنين ، وبها ظمأ الهواجر . قيل له : فقد أُذِنَ لك ، أفلا ترجع ؟ قال : أكره أن أرتحل رحلة هوى .

وكما روى عن وهب بن منبه ، رحمه الله تعالى ، أن رجلًا قال لمعلمه : قد قطعت الهوى . قال : أتفرق بين النساء والدواء ؟ قال : نعم . قال : فأنت أوثقت الهوى ولم تقطعه .

وكما روى عن عيسى بن مريم عليهما السلام : هل يستوى عندكم هذان : كف من تراب ، وكف من ذهب ؟ قالوا : لا . قال : فهما عندى سواء . فهذا قَطْعُ الهوى .

قال له قائل : اشرح لنا هذا . وكيف يستوى هذانِ فى قلب ؟

قال : إن الناس إنما فرقوا بينهما ، وفضلوا الذهب على التراب بالهوى ، لما رأوا منفعة الذهب ، فضلوه من أجل المنفعة .

فينبغى لمن أراد التخلص من هذا أن يروض نفسه ، حتى يرى بنور اليقين الأشياء كلها مستوية ، بمعنى أنها خلق الله تعالى ، ثم يرى المنازل التى أنزلها الله تعالى ، فبإنزاله إياها بَيَّنَ لها تلك المنزلة موافقةً له ، ولو شاء جعل المنفعة التى فى الذهب فى الزجاج وفى الحجر ، ولكان الذهب ساقط المنزلة عن القلوب ، ألا ترى أن عمر رضى اللهن عنه أراد أن يتخذ الدراهم من جلود البقر ؟

فإنما ينبغى أن تفضل عندك شأن الدينار والدرهم ، بما أنزل الله لا بهواك ، ألا ترى لو أن رجلًا آتى « سمرقند » بعض هذه الكور التى تجوز فيها هذه الفلوس ، كان للفلوس عنده قدر ، إن افتقدها حزن ، وإن وجدها فرح ، فإذا تحول إلى كورة لا تجوز فيها تلك الفلوس ، فلو رمى بها لم يبال ؟

فهذا مما يدلك أن الذهب إنما عَظُمَ موقعه من القلوب لعظم منفعته ، بأنه صار ثمنًا للأشياء ، فمن أجل ذلك بغض الله تعالى كثيرًا من الناس من أجل أنهم رأوا منفعة الأشياء من الدينار والدرهم ، لا من الله عز وجل .

فينبغى لك أن تروض نفسك وتفطِمهَا عن هذه الأشياء ، حتى يصفو قلبك ، ويسير باليقين ، حتى ترى الدينار

والدرهم خَلْقَينِ من خلق الله تعالى كسائر الخلق مبتدعًا ، ثم تنزلهما بالمنزلة التى أنزلهما الله تعالى ، فبإنزاله بفضلهما ، ويرى المنفعة التى فيهما من خلقهما ، فحينئذ يستوى عندك حالهما : فى أنهما خلقان من خلق الله تعالى ، فهذا عندنا معنى قول عيسى بن مريم عليهما السلام .

فإذا غفلت عن النفس بعد رياضتها ، فلا تأمن أن تعود إلى بعض عاداتها ما دامت الشهوات منها حية ، والهوى قائمًا ، ألا ترى أن القوس إذا تُرِكَ استعمالها وتعاهدها وعتقت[1] ، وكيف يأخذ البيت الأسفل من البيت الأعلى ؟ فكلما رميت بها سهمًا أخطأ الغرض ، كذلك النفس إذا تركتها حتى تقوى شهواتها ، ويشتد حرها فى الجوف ، وتقوى ظلمة الهوى ، أخذت من البيت الأعلى ، وهو نور العقل ، ونور المعرفة ، ونور الروح ، ونور العلم ، فتحرق بنيران الشهوات من هذه الأنوار التى فى القلب بقدر قوتها .

وإذا قويت بنيرات الشهوات ضعفت الأنوار ، فيظلم الهوى على اليقين ، فيتولد الشك على القلب من هذه الآفات ، فتغلب على القلب هذه الآفات .

(١) عتقت من العتيق . وهو القديم من كل شيء « لسان العرب » .

فمن هنا يُصْرَع ، فهذا هو القلب المصروع ، والمأسور فى يد هواها ، قلما خرج منه عمل من أعمال البرد ، ثم لم يصب الغرض ، فوقعت رميته يمينًا وشمالًا ، وربما خرج منه فلم يبلغ الغرض لضعف القوس ، وذلك أنه رمى عن قوس قد أصابتها الآفات والعلل .

فكذلك آفة القلب الذى وصفنا ، ربما أردت برًّا ، مال بقلبك الهوى إلى الشهوات يمينًا وشمالًا ، حتى تحيد عن السبيل والسنة ، وربما جاوزت الغرض ، وربما ضعف قلبك ، فعملت بغير نية ، فلم يبلغ عملك إلى ربك ، كما قصرت الرمية عن الغرض .

أفلا ترى كيف تعالج القوس ، وتحمى حتى تلين ، فإذا لانت سويت ، حتى يرجع البيت الأعلى إلى مكانه ، وإنما زال عن مكانه لأن البيت الأسفل لما قوى وصلب مُدَّ بالبيت الأعلى بفضل قوته ، فكذلك النفس لما قويت وصلبت شهواتها ، انتشرت وهاج هواها ، فأحرقت أنوار القلب ، والقلب هو رطب بالأنوار ؛ لأن النور هو من الله تعالى رحمة ، والرحمة باردة ، والقلب لين منقاد برطوبة تلك الأنوار .

فإذا احترق النور ، صلب القلب ، وقسا ويبس ، فخف عن ذكر الله ، وَلَهَا عنه .

فالمشروح صدره للإسلام ، شرحه ربه ، ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[1] فمدت النفس آلتها ، فصار فى سلطانها ، كما يحمى القوس حتى تلين ، ويتخلى عن البيت الأول .

كذلك تُرَاضُ النفس بأن تُحمى ، وهو أن يمنعها اللذات والشهوات ، فتُحْرَق ويصيبها حرقات منع الشهوات فى مصائبها ، فبتلك الحرقات تذل وتنقمع ، وتلين ، وتتخلى عن القلب ، فيرجع القلب إلى مكانه بنور المعرفة ، ونور العقل ، ونور العلم ، ونور فوائد العطايا ، فكلما منعت النفس شيئًا من هذه الشهوات ، خلت عنه كما وصفنا ، وكلما أعطيت النفس منيتها قويت ، فصارت كالشجرة تثمر الحنظل ، والدفلى[2] ، والمر ، والصبر ، والسموم القاتلة . فإن أردت ألَّا تنمو ، فالتدبير فيما عقل العبد وفهمه أن تحبس عنها الماء والسِّرقين[3] والتراب الذى يلقى فى أصله ، حتى تيبس ،

---

(١) سورة الزمر – من الآية رقم ٢٢ .

(٢) نوع من النبات مر الطعم .

(٣) أى : السرجين ، وهو الزبل الذى تسمد به الأرض .

فتصير جذعًا ، لا يثمر ، ولا يرجع عليك بالضرر .

ثم لا يزال جذعًا يعترض بين عينيك ، يشغلك عما سواه من الأشجار ، فتشعل فيه نارًا ، حتى يذهب شخصه من بين عينيك ، فإذا هو قد ذهب أثره ، وذهب ذكره .

وكذلك النفس : فى التدبير ، أن تحبس عن النفس لذاتها ، وشهواتها ، حتى تذهب ثمراتها من هذه السموم القاتلة التى تميت قلبك فى الدنيا ، فتصير أعمى من العميان فى الدنيا ، بصيرًا فى دين الله جل وعلا ، فتقبل على مزيلة وهى الدنيا ، وإنما هى قنطرة ، تداولتك أيدى أسود وأبيض ، وهو الليل والنهار ، حتى يؤديك إلى الخالق البارى ، المثيب المعاقب ، فتعظم ما صَغَّرَ الله ، وتكرم من أهانه الله ، وتدنى من أقصاه الله ، وتتعلق بمن لابد أن تفارقه ، وتعمر ما أذنَ فى خرابه .

فإذا ذهبت ثمراتها حُبست عنها الفكرة فيها ، والحديث عنها ، والتذكرة لها ، حتى تيبس ، ثم لا تزال تمنيه شهواتها ، قائمة بينك وبين ربك ، تفرح بالعطاء ، وترضى بما تُعْطى به ، وتروم ما لم تعط ، وترى نفسها فى الأشياء ، فهى تحجبك وتشغلك .

حتى إذا مَنَّ الله عليك بنور اليقين ، فهى كالبرقة ، كما تشعل شجرك نارًا فيذهب أثره وذكره ، كذلك البرقة تحرق قائمة نفسك ، فيذهب أثرها وذكرها ، ويبقى والهًا منفردًا به ، فتكون الأشياء والأمور منك له وبه .

فإذا أهملتها ، وعجزت عن رياضتها ، رجعت بوبال عظيم ، تعرض عن دار دعاك إليها رب العالمين ، فقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[1] ، أمَّنَك من آفاتها ، فنسبها إلى اسمه السلام من بين الأسماء ، يُعلمك أن لسكانها السلامة من الآفات ، محشوة بالنعم ، مشحونة بالرضوان ، وتُلْهى عنه باللعب والباطل .

كفى بهذه عارًا ، وأنت عبد ، سخر الله لك الخلق والخليقة ، لم تنل حتى تكون ما عشت قائمًا بتربية حقوقه ، ناظرًا لأموره ، معظمًا لشأنه ذاكرًا له ، ناشرًا عنه الجميل ، مشتاقًا بقلبك إلى لقائه ، فأقبلت على تربيتك نفسك وطلبك لها العز والجاه ، والمنزلة من الخلق ، والذِّكر على الألسنة . فهذه ربوبيته ، فكيف تتفرغ للعبودية من طلب الربوبية ،

---

(١) سورة يونس – من الآية رقم ٢٥ .

فاشتغلت عنه ، فسهوت ولهوت عن ربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدَّلك ، وجمَّل صورتك ، ودعاك فأعطاك وحياك ، وأمَّلكَ، ومنَّاك ، ومن عظيم الخطر ومن ظلمة الكفر نَجَّاك .

فهذا الذى وصفنا من تركك الشهوات ، وتجنبك اللذات ، ليس تحريم الذى أحل الله به ، ولكن تأديب لنفسك ، ورياضة لها ؛ لأن هذه النعم ، إنما أُمرت وأذن لك فى تناولها ، على الأدب الذى أُدِّبتَ به على لسان الكتاب والرسول ، فلما ساء أدبك لما فيه من أخلاط السوء ، التى مالت بك ، لم تجد بدًّا من أن تعظمها مرة ، حتى يجد القلب فراغًا إلى تعلم الأدب ، فتأخذ طريقًا ، فأما قلب معلق بالشهوات ، مأسور باللذات ، مقهور بالمنى ، محبوس فى سجن الهوى ، فى بئر مظلمة[1] ، فكيف يمكنه أن يتناول ما أعطى بإذن الله ، فإن بعض من خفى عليه هذا النوع من العلم ، كبر فى صدره هذا ، حتى ربما يفرح إلى الاحتجاج بقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ

---

(١) فى الأصل « مظلم » .

﴿ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[1] .

وبقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[2] . فهذا من الاحتجاج تعنيف ، ومن القول تحريف ؛ لأنَّا لم نُرِدْ بهذا التحريم ، ولكن أردنا تأديب النفس ، حتى تأخذ الأدب ، تعلم كيف ينبغى أن تعمل فى ذلك ، ألا ترى إلى قوله جل وعلا : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[3] . فالبغى فى الشىء الحلال حرام ، والفخر حرام ، والمباهاة حرام ، والرياء حرام ، والسرف حرام .

فإنما أوتيت النفس هذا المنع ، من أجل أنها مالت إلى هذه الأشياء بقلبها ، حتى تفسد القلب ، فلما رأيتُ النفس تتناول زينة الله والطيبات من الرزق ، تريد بذلك تغنيًّا ، أو مباهاة ، أو رياء ، علمت أنها خلطت حرامًا بحرام ، فضيعت الشكر ، وإنما رزقت لتشكر لا لتكفر .

---

(١) سورة المائدة – الآية رقم ٨٧ .

(٢) سورة الأعراف – من الآية رقم ٣٢ .

(٣) سورة الأعراف – من الآية رقم ٣٣ .

فلما رأيت سوء أدبها منعتها ، حتى إذا ذلت وانقمعت ، ورآنى ربى مجاهدًا فى ذاته حق جهاده ، هدانى سبيله كما وعد تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] . فصرت عنده بالمجاهدة محسنًا ، فكان الله معى ، ومن كان مع الله فمعه الفئة التى لا تُغْلب ، والحارس الذى لا ينام ، والهادى الذى لا يضل ، وقذف فى القلب من النور ، نورًا عاجلًا فى دار الدنيا ، حتى يوصله إلى ثواب الآجل .

ألا ترى إلى ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إذا قُذِفَ النور فى قلب عبد انفسح وانشرح** » ، قيل : يا رسول الله ، فهل لذلك من علامة ؟ قال : « **نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله** » .

وإنما تجافى عن دار الغرور بما قذف فى قلبه من النور ، فأبصر به عيوب الدنيا ودواهيها وآفاتها وخدعها وخرابها ، فغاب عن قلبه البغى والرياء والسمعة والمباهاة والفخر والخيلاء

---

(١) سورة العنكبوت – الآية رقم ٦٩ .

والحسد ؛ لأن ذلك إنما كان أصله من تعظيمه الدنيا ، وحلاوتها فى قلبه ، وحبه لها ، وكان سبب نجاته من هذه الآفات برحمة الله رياضته هذه النفس ، بمنع الشهوات منها .

وهذا فى الآثار موجود قائم عن السلف ، قد سارت به الركبان ، من غير وجه . حدثنا محمد بن سهل ، قال : حدثنا عمر بن منصور القيسى قال : حدثنا عبد الواحد بن زيد ، عن الحسن ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ذات يوم : « **ماذا تقولون فى صاحب إذا أنتم أكرمتموه ورحمتموه وأطعمتموه وسقيتموه ، دعاكم إلى شر غاية ، وإذا أنتم أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه وأعطشتموه وأتعبتموه دعاكم إلى خير غاية ؟** » قالوا : يا رسول الله ، هذا شر صاحب فى الأرض ، قال : « **إى ، والذى بعثنى بالحق ، هى أنفسكم التى بين جنوبكم** »[1] .

---

(١) انظر الحديث فى كتاب « منازل العباد من العبادة » للحكيم الترمذى ص ٧٨ بتحقيق أحمد السايح ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **ليس عدوك الذى إنْ قاتلك أدخلك الله به الجنة ، وإن قتلته كان لك نورًا ، ولكن أعدى عدو لك نَفْسُك التى بين جنبك** » ذكره النبهانى فى الفتح الكبير جـ٣ ص٦٠ - ٦١ . وكذلك ذكره صاحب فيض القدير جـ٥ ص٣٦٧ .

وحدثنا صالح بن محمد ، قال : حدثنا أبو مقاتل ، عن ابن عون بن أبى راشد ، عن الحسن ، رضى الله عنه ، قال : بلغنا عن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، قال فى خطبته : « لا تضربن بكم الشهوات ، فإنها أشد حرًّا فى الجوف من النار ، وأشد سكرًا من الخمر ، وإنكم لا تدركون ما تأملون ، إلا بالصبر على ما تكرهون ، ولا تنالون ما تحبون ، إلا بترك ما تشتهون » .

حدثنا عمر عن سهل بن تمام ، عن عمار بن منصور ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « **طهروا قلوبكم بقلة الطعام تصفو ، فترق وتصلب وتستعف** » فصفاؤها لله ، وصلابتها فى الدين ، ورقتها للإخوان ، واستعفافها فى ذات الله تعالى .

فعالج قلبك حتى تعتقه من رق النفس بما وصفت ، فإذا كان كذلك صَفَا قلبك من كدورة الأخلاق ، وطهر من شهوة الآثام ، فاستقر اليقين فيه ؛ لأن اليقين لا يستقر حتى يرى مكانًا طاهرًا ، فتحيا القلوب وتصلب ؛ لأنه من الله قد قرب عبده واصطفاه ، فيصير حينئذ ما غاب عن العين من أمور الآخرة وأمور الملكوت ، بعين قلبه ، فهو كالبرق فى

ليلة ظلماء ، إذا برقت أبصرت بعين رأسك جميع ما غاب عنك فى تلك الظلمة ، من بئر أو جُرْفٍ أو واد .

أو ما ترى إلى حديث حارثة ، حدثنا بذلك عبد الجبار بن العلاء ، قال : حدثنا يوسف بن عطية ، عن أنس ، قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى إذ استقبله شاب من الأنصار ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « **كيف أصبحت يا حارثة ؟** » .

قال : أصبحت مؤمنًا بالله حقًّا .

قال : « **فانظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة** » .

قال : يا رسول الله ، عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى بعرش ربى بارزًا ، وكأنى أنظرإلى أهل الجنة يتزاورون ، وكأنى أنظر إلى أهل النار كيف يَتَعَاوَوْنَ فيها .

قال : « **عرفت فالزم ، عَبْد نَوَّرَ الله الإيمان فى قلبه** » .

فقال : يا رسول الله ، ادعُ لى بالشهادة ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] . فنودى يومًا فى الخيل

(١) رواه البزار عن أنس والطبرانى فى الكبير من حديث الحارث بن مالك وسنده ضعيف .

وكان أول فارس استشهد ، فبلغ أمه ، فجاءت إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ، أخبرنى عن ابنى ، إنْ يَكُ فى الجنة لم أَبْكِ عليه ولم أحزن ، وإنْ يك غير ذلك بكيت عليه ما عشت .

قال : « **يا أم الحارث ، إنها ليست جنة ، ولكن جنة فى جنان ، والحارث فى الفردوس الأعلى** » ، فرجعت وهى تضحك وتقول : بخ بخ لك يا حارثة .

أفلا ترى أنه لما راض نفسه بأن قال : عزفت نفسى عن لذات الدنيا وشهواتها ، فكأنى أنظر إلى عرش ربى ، فصارت الأمور الغائبة عنده معاينة ، فعمل على الحقائق وذهب الجهل ؛ لأنه من نصب وتعب ، وعمل على المعاينة ، زال الجهل عنه ، ومَنْ عمل على غير المعاينة فهو فى جهد عظيم ، ومخاطرة عظيمة من قِبَل نفسه ، إلا من عصم الله تعالى ؛ لأنه كالسائر فى الظلمة ، أحيانًا يمشى ، وأحيانًا تنهشه حية ، أو تلدغه عقرب ، لا يبصر أين يضع قدمه ، فهذه مخاطرة .

وأما جهده ثقل نفسه ، فإنما ثقل أنه لم يعاين ما ثمرة هذه الأمور ، وهو بمنزلة رجل قيل له : احمل هذه الحمولة ، فثقل عليه ، فهو يجد ثقلها على فؤاده .

فقيل له : احمل ، ولك هذا الدينار ، فاستمر بالحمولة ، ونهض بأعباء ثقلها فوجد خفة الحمولة ؛ لأنه قَوَّى القلب بما عاين من الدنيا ، فقويت الأركان .

أو قيل له : احمل هذه الحمولة ، فثقل عليه ، فَعَلاهُ بالسيف ، أو بشعلة نارٍ ، فخلص إليه الخوف فاحتمله ، فوجده خفيفًا ؛ لأن القلب قد عزم على احتماله ، هربًا من السيف .

أو قيل له احمل هذه الحمولة ، فثقل عليه ، فقيل له : هذا الملك وأنت بعينه ينظر إليك ، فوجد القلب قد انتقل عن حالته ، إجلالًا للملك ، فاستمر بالحمولة وقوى القلب ، فإنما أدرك حمل هذه الحمولة بما عاين .

فكذلك صاحب النفس ، قد عاين ، وشاهد قلبه ، مما هو أكثر مما هاهنا من معاينة بصر الرأس فى دار الدنيا ، فالقلب الموقن ، صفته إذا تناول النعمة فكأنما يتناولها من خالقه ، فيأخذها بحياء ، ومرة بحلاوة ، ومرة بمهابة ، ومرة بخوف ، وإذا نزلت به بلية أبصر بنور يقينه إلى أموره ، اختار له هذا ، فظن به أحسن الظنون ؛ لأنه أيقن أنه به أرحم منه بنفسه

وأرأف ، فَأْتَمَنَ ربه ، واتهم نفسه ، وقال : ربى أعلم بما اختار لك ، فإن لم أصلح على اختياره وتقديره ، لم أصلح على اختيارك وتقديرك أيتها النفس ، واختيارك أنزل بى هذه البلية لإحدى خلال : إما تكفيرًا لخطيئة استوجب بها هذا العذاب الأكبر .

وإما رفع لى درجة يقربنى إليه ، وإما بينهما لأمر عظيم ، أو عصمنى من ذنب ، أو صرف عنى داهية ، أو عاجلنى بعقوبة ، لأنْ يرفع عنى عقوبة الآخرة ، ففى كل هذا خير .

وأما العارف فإنه أجمله ، فقال : هو مشيئة ربى ، فمشيئته أجَلُّ عندى ، وأعظم على قلبى من نفسى وجميع جوارحى ، وهؤلاء قوم ولهت قلوبهم لديه ، فصارت أحكامه التى رضيها لهم مُنية قلوبهم ، من إجلالهم له وإعظامهم .

صفة الموقن

عدنا إلى صفة الموقن :

وإذا ذكر الرزق وثق بالضمان ، واطمأن بوفائه ، فإن طَلَبَ طَلَبَهُ مع سكون القلب ، على حد ما أمَرَ به ، فإذا